مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 15 العدد: 02 السنة 2023 ص 820 - 839

تاريخ الإرسال: 2022/02/02 تاريخ القبول: 2022/10/13
تاريخ النشر: 2023/06/03

السماع اللغوي عند الفراء من خلال كتابه (معاني القرآن)
Hearing from the Fur through his book (The Meanings of the Qur'an)

جعفاري مولود[1]. أ د.عماري عبد الله[2]
talbmolod@gmail.com
a.ammari1984@yahoo.com
جامعة تمنراست، **مخبر**البيئة والعلوم

الملخص:

تتناول هذه الدراسة أصلا من أصول النحو، والذي يعد من أبرز الموارد التي يستنبط منها اللسان العربي، ألا وهو السماع، في مقارنة علمية بين أبرز مدرستين لغويتين غريقتين في الدرس النحوي، إذ يعد قضية شائكة بين علماء اللغة القدامى وخاصة من حيث الأخذ به والاعتماد عليه في مصادر اللغة، ذهب بعضهم إلى أن كل ما ورد منه مقبول يجب أن تخضع له قوانين اللغة، في حين يرى البعض الآخر أنه يخضع إلى تحفظات ينبغي التوقف عندها، وانطلاقا من هذا نحاول أن نبين موقف الفراء الذي يعد أحد رواد المدرسة الكوفية من خلال كتابه معاني القرآن مسلطين الضوء على بعض الشواهد من الكتاب.

الكلمات المفتاحية: الفراء، السماع، معاني القرآن، الكوفة،،البصرة، القرآن.

Abstract.

This study deals primarily with the origins of grammar، which is one of the most prominent resources from which the

Arabic language is derived، namely، listening، in a scientific comparison between the two most prominent linguistic schools that were immersed in the grammar lesson، as it is considered a thorny issue among ancient linguists، especially in terms of its adoption and dependence. In the language sources، some of them went to the conclusion that everything that was mentioned from it is acceptable، and the laws of the language should be subject to it، while others see that it is subject to reservations that should be stopped. Meanings highlighting some evidence from the book.

المؤلف المرسل: جعفاري مولود، TALBMOLOD@GMAIL.COM

1.مـقـدمـة:

الحمد لله الذي خلق الإنسان،علمه البيان، وأخص أمتنا العربية والإسلامية بأفصح لسان أنزل به القران ، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى العدنان وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين ، وبعد.

اعتنى العرب قديما وخاصة منهم العلماء الفصحاء بالعربية ونحوها عناية شديدة بالغة الأهمية، حيث ظهر ذلك من خلال تقصي الباحثين لظهور علم النحو الذي مر عبر مراحل معلومة والتي منها ان اللسان العربي كان ينطقها سليقة وفطرية ، لكن حين اتسعت رقعة الدول العربية واختلط العرب بالعجم أثناء الفتوحات تسرب اللحن إلى العربية، فخشي عليها الفصحاء وولاة الأمر من الاندثار والضياع، حاول نخبة منهم إرساء قواعد وضوابط تضبط هذه الحالة، وعلى غرار ذلك ظهر ما يسمى بعلم النحو.

حيث تقرر في الدراسات السابقة أصول النحو جملة وتفصيلا وكان تعدادها السماع والإجماع والقياس...، وسنتناول هنا الأصل الأول من أصول النحو، وهو السَّماع أو النقل، عند الفراء ضمن المدرسة الكوفية مستفتحاً ببيان مفهوم السماع،

ثم واقع قضية السماع داخل المدرسة الكوفية مقارنة بالمدرسة البصرية مستنبطاً خصائص كل مدرسة من القضية، موضحاً موقف الفراء منها من خلال كتابه معاني القرآن خاتماً الدراسة، بسسرد شواهد من الكتاب والتي تكون بمثابة أُنموذجاً أضعه بين يدي القارئ.

2. نبذة عن حياة الفراء:

هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان الديلمي، مولى بني أسد المعروف بالفراء، لأنه كان يفري الكلام، وهو ذو أصلٍ فارسي، ولد بالكوفة سنة أربعٍ وأربعين ومائة هجرية، ونشأ بها يطلب علم النحو على الكسائي والرؤاسي، ثم انتقل إلى البصرة لينهل من منابعها اللغوية فأخذ عن يونس بن حبيب وأهل الكوفة ينكرون ذلك[1].

عني في حياته العلمية بالفقه والشريعة الإسلامية وعلوم القرآن ألف فيها "كتاب معاني القرآن" المشهور له، وعني باللغة في خلال ذلك، وبالفلسفة وعلم الكلام، وتبحر في كل منها[2]، توفي في العام السابع بعد قرنين من الهجرة النبوية[3].

ويلاحظ، أن ابن الانباري نفى سبب التسمية من أنه يعود إلى بيع أو شراء الفراء مؤكداً على أن ذلك راجع لحسن نظم المسائل أو قطع الخصوم بها ،لأنه يحظى عنده بمكانة مرموقة، وقال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب:" لولا الفراء لما كانت العربية لأنه خلصها وضبطها[4]". حيث يعد هذا الرأي أيضا بمثابة انتصار وتقوية للمدرسة فهو أمر طبيعي.

أخذ عن أبي الحسن الكسائي(189.119)، وروى عن قيس بن الربيع (167 .90)، ومندل بن علي(187.103)، وأخذ عن سلمه بن عاصم (ت. 290)، ومحمد بن الجهم النمري (463.368) وغيرهم، كان هو والأحمر(ت.194) أشهر أصحاب الكسائي، وكان أعلم الكوفيين بالنحو من بعده، وأخذ أيضا عن يونس بن حبيب البصري(182.94)، فاستكثر منه[5].

ولد الفراء بالكوفة سنة 142هـ في عهد أبي جعفر المنصور، وتوفي في طريق عودته من مكة سنة 207هـ عن عمر ناهز خمس وستين سنة، نشأ بالكوفة وتتلمذ على عدد من الأساتذة السابقين إضافة إلى أبي بكر بن عياش و الكسائي، وغيرهم، وكان يقال عنه أمير المؤمنين في النحو[6] ، وهذا الوصف ينسب إلى منتصري المدرسة الكوفية على حد تعبيرهم.

1/2 – ثناء العلماء عليه:

رُوي عن سلمه بن عاصم أنه قال: "إني لأعجب من الفراء كيف يعظم الكسائي؟ وهو أعلم منه بالنحو"[7]، وكان المأمون قد وكّل بالفراء ابنيه يلقنهما النحو، فأراد القيام فابتدرا نعليه، فتنازعا أيهما يقدِمهما، ثم اصطلاحا أن يقدم كل واحد فردة فلما بلغ ذلك المأمون استدعى الفراء ثم قال له: "ليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث: تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعلمه العلم"[8]، فهذا ان دل على شيء فقد دل على مكانة العلم وأهله عند السلطان المأمون.

وكان الفراء فقيهاً عالماً بالخلاف وبأيام العرب وأخبارها وأشعارها، عارفاً بالطب والنجوم ، متكلماً، يميل إلى الاعتزال،" ويصفه مترجموه بالتفلسف في تصانيفه وأنه كان يستعمل فيها ألفاظ الفلسفة"[9].

وحكى أبو العباس قال: لما تصدى أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء للاتصال بالمأمون كان يتردد إلى الباب، فلما كان ذات يوم بالباب جاء ثمامة بن الأشرس (ت.213هـ)، المتكلم المشهور قال: فرأيت صورة أديب وأبهة أدب فجلست إليه وفاتشته عن اللغة فوجدته بحراً، وعن النحو فشهدته نسيج وحده، وعن الفقه فوجدته فقيهاً عارفاً باختلاف القوم، وفي النجوم ماهراً وبالطب خبيراً وبأيام العرب وأخبارها وأشعارها حاذقاً، فقلت له من تكون ؟ وما أظنك إلا الفراء فقال: أنا هو، قال: فدخلت فأعلمت أمير المؤمنين بمكانته فاستحضرته وكان سبب اتصاله به[10].

وقد مضى مثل النحاة البصريين وأستاذه الكسائي لا يستشهد بالحديث النبوي في كتابه "معاني القرآن"، إلا ما جاء عرضاً وعفوياً بحيث لا يصح التعميم عنده، وأن يقال: إنه كان يستشهد به، فقد كانوا يصطلحون على أن روايته بالمعنى وأنه رواه أعاجم غير ثقات في العربية. أما القراءات فهي محور الكتاب، وقد أدار عليها توجيهاته لما لها من أساليب العرب، متحدثاً عن لغاتهم التي تجري مع القياس، والتي تشذ عنه في رأيه، مما جعله يرد بعضها أحياناً، كما رد بعض القراءات [11].

وللفراء تصانيف عدة أوردها بن النديم(ت.384) والزركلي(ت.1310هـ) نذكر منها: المصادر في القران، الوقف والابتداء، الفاخر، آلة الكتابة، النوادر، المقصور والممدود، المذكر، والمؤنث، الحدود، مشكل اللغة، الأيام والليالي، اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف[12] ، وكتاب فعل وأفعل، وكتاب المشكل الصغير، وكتاب الواو، وغيرها[13]، وكل هذه الكتب أُمليت تقريباً حفظاً كما قال سلمة بن عاصم (ت290): " أملى الفراء كتبه كلها حفظاً ولم يأخذ بيده نسخةً إلا في كتابين، كتاب "ملازم "، وكتاب "يافع ويفعة"[14].

3 – السماع:

"كان الفراء يتوسع فيه مثل ما كان يتوسع أستاذه الكسائي في الرواية عن الأعراب المتحضرين"[15] إضافة إلى أنه، كان كثير التردد خاصة على الفصحاء منهم، كأبي ثروان الذي(عاش في النصف الأخر من القرن الثاني الهجري) وأبي الجراح(ت141)، ودلت كثرة رواياته عن العرب وقبائلهم، أنه كانت له رحلات واسعة ومكثفة إلى الجزيرة، حيث رأينا انه أكثر في كتابه معاني القرآن بعبارة مختلفة توحي إلى الأخذ سماعاً نحو قوله: " وسمعت العرب تقول"أو"أنشدني بعض بني أسد أو بعض بني كلاب أو بعض بني ربيعة أو بعض بني عامر أو بعض بني حنيفة "[16].

وهذا ما يشهد له انه كان متوسعاً في السماع إلى حد أنه أخذ عن جملة من القبائل غير الست المعروفة عند البصريين إذ أن البصريين لم يأخذو عن كلاب، ربيعة، عامر ،حنيفة، وهو دليل توسع أهل الكوفة في السماع.

1/3- مفهوم السماع لغة: سَمِعَ: السَّمْعُ: حِسُ الْأُذُنِ. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: 37]؛ وَقَالَ ثَعْلَبٌ: مَعْنَاهُ خَلَا لَهُ فَلَمْ يَشْتَغِلْ بِغَيْرِهِ، وَقَدْ سَمِعَهُ سَمْعًا وَسِمْعًا وَسَمَاعًا وَسَمَاعَةً وَسَمَاعِيَةً. قَالَ اللحْيَانِيُّ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: السَّمْعُ الْمَصْدَرُ، وَالسَّمْعُ: الِاسْمُ. وَالسَّمْعُ أَيْضًا: الْأُذُنُ، وَالْجَمْعُ أَسْمَاعٌ.[17]

3/2 – السماع اصطلاحاً: " يقصد به ورود لفظة، أو تعبير، عند العرب الفصحاء في عصر الاحتجاج، والمقصود بـ " العرب الفصحاء " العرب الذين أُخذت عنهم اللغة وهم قبائل قريش، وقيس وتميم، وهذيل، وبعض كنانة وبعض الطائيين"[18].

"وجاء على لسان أحد المعاصرين للغة: أن السماع بهذا المفهوم مرادف للنقل الذي يعرِفه ابن الأنباري أنه: " هو الكلام العربي الفصيح، المنقول بالنقل الصحيح، الخارج عن القلة إلى حد الكثرة"[19].وهو بذلك أول دليل من أدلة النحو، و به يحتج بعض النحاة على البعض الآخر*فالناظر إلى كتاب سيبويه يجد كثرة النقول عن أساتذته ومشايخه، ومن أتى بعد سيبويه لم يتحرج من ان يستشهد بما استشهد به سيبويه من شعر، على علمه بأن هذا البيت لا يُعرف قائله إنما عُرف أن سيبويه ثقة فهو نَقَلَ النقلَ الصحيح"[20].

يأتي السماع في مقدمة أدلة النحو، وقد أُصطلِح عليه أيضاً "النقل" فهو عند السيوطي السماع[21]، وعند ابن الأنباري النقل[22]، ويضم السماع المدونة العربية الفصيحة، وهو أيضا دليل عقلي نقلي، يتصدر مصادر النحو لقوة دليله، وهو ما نُقل عـن العرب الفصحاء بحكم نُطقهم لغتِهم كما هي[23]، هذا واضح من خلال تعريف ابن

الأنباري[24] السابق ، الذي يظهر من خلاله أنّه حّدد مواصفات المنقول، إذ اشترط فيه الفصاحة، واحتسبها شرطاً أساسياً في المنقول، و"الفصاحة عند القدماء هي الخلوص من التنافر والغرابة ومُخالفة القياس النحوي والحمل على الأكثر، ومدارها كثرة الاستعمال وما خالف الأكثر.

فالنقل عند ابن الأنباري يرتكز على "التواتر" كونه يتضمن الكلام العربي الفصيح الذي يقع في أعلى مستويات السماع وهو القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام العرب،وهو ما قاله أيضا السيوطي في "الاقتراح"، "السماع، و أعني به ما ثبُت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى، وهو القرآن، وكلام ρ، وكلام العرب قبل بعثته.[25]"..

4 – الاختلاف بين المدرستين في قضية السماع.

يعالج هذا العنصر مصدرًا لغويًا من بين أبرز المصادر التي يستند اليها اللسان العربي، في مقارنة علمية ضمنية بين مدرستين عريقتين في الدرس النحوي.

4/1 – خصائص السماع ومميزاته عند الكوفيين.

سبقت الإشارة من ذي قبل إلى ان علماء اللغة جالوا البوادي والصحاري بعثاً عن اللغة الفصيحة السليمة التي لم تشوبها شائبة حيث وضعوا نصب أعينهم شروطاً أساسية ينبغي السيرُ وفقها، كتحديد الزمن والمكان مثلاً، فحددوا الأخذ إلى عصر معين والمكان من قبائل معينة كتميم وقيس وكنانة وأسد وطئ...الخ.

"والواقع أن الكوفيين أرادوا ان يشقوا لأنفسهم طريقاً خاصاً بهم ، فأبانوا بذلك عن نواياهم، وهي تأسيس مدرسة نحوية خاصة بهم، إذ أن الكثير من أُسس المدرسة الكوفية مخالفةٌ لأُسس المدرسة البصرية، بل حتى المصطلحات مختلفة أيضا غير أن هذا لا ينفي اشتراكهم في الأصول العامة التي قام عليها النحو العربي مثل السماع، والقياس، ونظرية العامل"[26].

4/2- منهج الكوفيين. (التحري في السماع).

"إن الحركة اللغوية في الكوفة – كما يراها صالح بلعيد- كانت بذرة في حقيقتها لنشأة علم الجرح والتعديل، وكانت دعوة غير صالحة لتيسير النحو، وتحريره من قبضة القوانين الصارمة، وهم يعتقدون أن اللغة تنشأ وتنمو إذا تحررت، وتقييدها بقواعد صارمة وقوانين مشددة إجحاف في حقها"[27]، "غير أن الكوفيين أخذوا اللغة والنحو عن البصريين حيث لم يكن واحداً منهم إلا وقد ثبتت له تلمذة على يد بصري، وفيهم ابن الأعرابي الذي كانت روايته أشبه برواية البصريين رغم أنه أخذ عن الكسائي وقد عُرف بعصبيته[28].

"ولعل ما يؤكد أن الكوفيين كانت لهم الرغبة في مخالفة البصريين هي احتكامهم في بعض مسائل اللغة والنحو لأعراب لم يكونوا من قاطني البوادي الفصيحة، ولعل أشهر هذه المسائل المسألة الزنبورية[29]، التي جرت بين الكسائي وسيبويه حول الرفع أو النصب في قول العرب: " كنت أظن أن العقرب اشد لسعاً من الزنبور، فإذا هو هي أو فإذا هو إياها"، فاختار سيبويه الرفع، واختار الكسائي النصب، محتكماً إلى بعض الإعراب، فحكموا لصالح الكسائي، وإن كان مخطئاً في رأيه، وهذا دليل قاطع على ان أن الكوفيين اعتمدوا على لغات أخرى، أبى البصريون الاستشهاد بها، وهي لهجات سكان الأرياف الذين وثِقوا بهم كأعراب سواد الكوفة من تميم وأسد، وأعراب سواد بغداد من أعراب الحُطمية الذين غلط البصريون لغتهم ولحنوها واتهموا الكسائي بأنه افسد النحو أو أنه افسد ما كان قد أخذه بالبصرة إذ وثق بهم وأخذ عنهم واحتج على سيبويه في المناظرة التي جرت بينهم بلغتهم"[30].

"واهتمام أهل الكوفة من النحاة بالسماع كان أكثر مما عرف عند البصريين أمثالهم، وبصورة أوسع، فقد اخذوا شواهد اللغة من كل مسموع وبنو عليه وقاسوا وجعلوا الشاذ جائزاً وقعدوا عليه، وقاسوا على البيت الواحد وتعدوا إلى القياس على ما

خالف الأصول"[31]، "ورجحوا السماع على القياس وجعلوا دائرته أوسع منه عند البصريين، فأخذوا بشكل غير محدود عن الأعراب أينما وُجدوا، وتوسعوا في الأخذ بالقراءات وما يعرض لها من مسائل، وفي نظرهم كل ما ثبت أن العرب تكلموا به مقبول وصحيح ولو كان شاذًا[32]، "وهذا دليل واضح على أن الكوفيين لم يتشددوا تشدد البصريين بل أدى بهم تساهلهم الواضح إلى أقيسةٍ ابتدعوها مخالفةً لما نص عليه السماع فقد أجازوا قياس "لكن"، على "بل" في نحو قولنا قام زيد بل بكر من دون الاستناد إلى سماع، فقالوا قام زيد لكن بكراً "[33]."

ولعل أهم ما يتميز به منهج الكوفيين أيضاً، المبالغة في التقدير، ذلك أنهم يتوسعون في إجرائه، ومن أمثلة ذلك أنهم يرون أن الخبر الجامد يتحمل ضمير المبتدأ نحو: زيد أخوك وعمرو غلامك، واحتجوا بأن قالوا؛ إنما قلنا إنه يتضمن ضميراً – إن كان اسماً غير صفة– لأنه في معنى ما هو صفة، ألا ترى أن قولك: زيد أخوك في معنى زيد قريبك، وعمرو غلامك في معنى عمرو خادمك وقريبك، وخادمك يتضمن كل واحد منهما الضمير فلما كان خبر المبتدأ هاهنا في معنى ما يتحمل الضمير وجب أن يكون فيه ضمير يرجع إلى المبتدأ" [34].

" وفي هذا النص تأكيد واضح على أن الكوفيين يعتمدون على المعنى في تقدير قواعدهم، والاعتماد على المعنى مظهر ضعف حذر منه عدد من حذاق النحاة وعلى رأسهم ابن جني[35]".

غير أن الإشارة بالضعف لا ترتبط بالملكة اللغوية لأحد من نحاة الكوفة أو أتباعهم بل ترتبط بالنتائج المترتبة عن منهج التسهيل الذي عرف به أئمتهم في الأخذ بالمسموع شائعاً كان أو شاذًا وبإجراءات الحشو من كلام العرب بلا تحديد او حصر، وهذا ولا شك مدعاة إلى التيسير بما يجلب على النحو مذمات كثيرة.

"ومن هذا المنطلق أدرك محمد خريبش ضرورة معرفة عصور الاحتجاج اللغوي، بل نعلم سبب تقسيم بعض النقاد القدامى الشعراء إلى طبقات، فقال ابن رشيق" طبقات الشعر أربعة: جاهلي، قديم، ومخضرم، وإسلامي محدث، ثم صار المحدثون طبقات"[36].

"إن المتأمل في رأي الكوفيين في مسألة جواز إظهار "أن" المصدرية بعد "لكي" يدرك لا محالة، أنهم وإن لم يخالفوا البصريين في الأصول الكبرى التي قام عليها النحو العربي وهي السماع والقياس، إلا أنهم خالفوهم في استخدام هذين الأصلين، أو بالأحرى متى يجب الأخذ بالسماع وترك القياس، فالبصريون يتشددون في القياس على الكثير المطرد، ولا يلتفتون إلى البيت الشاذ، لإقناعهم انه غير كاف لإثبات القواعد النحوية مع تأكيدهم على ضرورة معرفة اسم الشاعر، وهذا مخافة أن يكون الشعر لمولد أو ممن لا يوثق بفصاحته"[37]، وفي هذا لدلالة واضحة على أن البصريين عُرفوا بالتضييق والدقة والتحري قي النقل (السماع) على عكس نظائرهم الكوفيين المعروف عنهم كثرة التوسع.

"وأخذ الكوفيون شواهد النحو عن سكان الحواضر أهل المُدر كما آخذوها عن سكان البراري أهل الوبر دون قيود أو حدود، ولم يهتموا بصدق الرواية أو صدق الراوي، مما جعل مروياتهم عرضةً للدسائس والمصنوع ،أو ما يعرف بالموضوع، وكان من أشهر رواة الكوفة حماد الراوي ويقال: "حماد سُلِط على الشعر فأفسدَه"، وقال له الكميت: أنت لحَّان ولا أكتبك شعري"[38].

وأعتقد اعتقادًا جازماً هنا أن مثل هذه الممارسات اللغوية كانت بذرة تحرر النحاة في الكوفة وفي الأمصار غير الكوفة في الأزمنة اللاحقة وبذرة تجاوز القواعد التي بحسب وصفهم صعبة او معقدة أو تجعل المتعلمين ينفرون من تعلم النحو

وينفرون من حلقاته، وبخاصة إذا كانت معظم مرويات حماد ملفقة ومنسوبة لغير قائليها.

4/3 –خصائص السماع ومميزاته عند البصريين.

. منهج البصريين (التحرّي في السماع).

ثبت أن للبصريين فضل صناعة النحو، وهذا ما أجمع عليه علماء العرب الأوائل، وفيها كانت نشأته، وإليها ينسب اثنان من أنبغ أئمة النحو والعربية، وكفاها فخراً، "الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) وسيبويه(ت180هـ) "[39].

وعُرف عن علماء البصرة أيضاً كثرة الضرب في الأرض خاصةً إلى البوادي طلباً للغة والكشف عن أسرارها " يتلقون عن أعرابها، والأعراب دائمو الورود إلى البصرة لشؤون معاشهم، فقد ضَرَبَ في بوادي الجزيرة الأصمعي (122هـ)، وأبو عبيدة (212هـ)، ويونس (182هـ)، وأبو زيد (215هـ)، والخليل، وغيرهم. وكانوا يتحرون في الاخذ: – أما العربي فيتحرون فيه سلامة لغته وسليقته.

– وأما الراوي فالصدق والضبط.

– و كانوا لا يعتدون بالشاهد (البيت الشعري) إذا لم يعرف قائله أو لم يروهِ عربي يوثق بلغته. ومن هنا عجت بلادهم بفصحاء الأعراب المعروفين في كتب الأدب الذين كانوا من مفاخر البصرة التي يعتدها البصريون"[40]

" ومما علم عنهم أن الخطة التي ارتضاها نحاتهم لبحثهم، والنهج الذي ساروا عليه في إرساء قواعده وأحكامه، والمتتبع لمنهج هذه المدرسة من حيث آراء نحاتها في المسائل الخلافية، وما أصلوه من أصول وما قعدوه من قواعد، يجد ـ وبكل وضوح ـ مدى دقتهم فيما سمِعوا عن العرب، فقد سمِعوا عنهم كثيراً إلا أنهم لم يكونوا يقبَلون كل ما سمِعوا، ولم يعتمدوا كلَ ما روي لهم"[41].

وهذا ما لا يخفى في جانب المقارنة بين المدرستين.

وفي هذا المقام يقول السيوطي :"اتفقوا على أن البصريين أصح قياساً؛ لأنهم لا يلتفتون إلى كل مسموع، ولا يقيسون على الشاذ، والكوفيون أوسع رواية"[42]، وهو ما جعل البصريين يفتخرون على الكوفيين بقول أبي الفضل العباس بن الفرج الرياشي قوله: " إنما أخذنا نحن اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع، وهؤلاء أخذوا اللغة من أهل السواد وأصحاب الكواميخ "[43].

ومن أجل الوصول إلى الضبط والدقة كان البصريون يختبرون من ينقلون عنهم، من ذلك ما روي من أن أبا عمرو بن العلاء استضعف فصاحة أبيَ خيرة، فسأله عن قول العرب: (استأصل الله عرقاَتهم) فنصب أبو خيرة التاء من(عرقاتهم)، فقال أبو عمرو: هيهات أبا خيرة، لانَ جلدُكَ، ذلك أن أبا عمرو استضعف النصب، لأنه كان قد سمعها منه بالجر[44]. "وكان البصريون أقلَ روايةٍ للشعر، وكان المصنوع لديهم منه أقل من الشعر المصنوع عند الكوفيين، وهذا هو السبب الذي جعل البصريّ يتحرج أن يأخذ الشواهد عن الكوفي وفي هذا يقول اليزيدي النحوي البصري في ذم الكسائي وأصحابه[45]:

كنا نقيس النحو فيما مضى * على لسان العرب الأول
فجـــاءنا قـــوم يقيسونه * على لُغى أشياخِ قطربل
إن الكســائــي وأشــيـــاعه * يرقَوْن في النحو إلى أسفل".

فالبصريون، إذاً يعود لهم فضل تثبيت الظواهر اللغوية بعقلانية تامة، والمنطق الدقيق، لما اخضعوا كلام العرب في أغلب استعمالاته إلى قواعد، وقيدوه بشروط وصبوه في قوالب ممنطقة، وكل ما عدا ذلك أو خالفه وخرج عنه، حكموا عليه بالشذوذ، وأبعدوه من دائرة القياس وفي النهاية الاحتجاج[46].

"غير أن بعض الباحثين أكدوا أن البصريّين أخذوا بالسماع كما أخذوا بالقياس، ويبدو ذلك واضحاً في ردهم لمسائل الكوفيين،" فكيف يقبلون المتن من دون سند؟، أي

أنهم يرفضون الشاهد الذي لم يُعرف قائله؛ أما إذا خرجت هذه الشواهد عن كلام العرب الشائع المسموع عنهم فهي بلا تردد في عداد الشواهد الشاذة أو الضرورات، وعليه فالأخذ بها في وضع الأحكام النحوية غير مقبول؛ وهم يتقيدون بالمأثور العام من الكلام الذي يتحرّونه، ويسعون إلى تحقيق القاعدة الشاملة منه بعدما يستقرئون ما يجمعون، وفي أثناء ذلك يُخضعون لغات القبائل التي حددوها أو لهجاتها إلى عملية فرز دقيقة، فيختارون أشيعها وأقربها إلى القياس، ثم إنهم يعتمدون على كلام العرب ويختارون منه الثابت والأكيد، وقد وضعوا لذلك معايير ومقاييس اتفق عليها الجمهور هي: أن تكون أكثر اللغات شيوعاً وأكثر وقوعاً في الآثار وأخفها على الألسنة وأجودها إذًا في القياس النحوي"[47].

فلا ينكر أحد من الدارسين أو الطلبة ما كان عليه نحاة البصرة –على تشددهم– من الاعتدال والتثبت في التقعيد النحوي وفي استنباط الأحكام من الأساليب الفصيحة ولم تكن الدوافع ذاتية لديهم بقدر ما كان خوفهم على اللغة عامة وعلى القرآن الكريم بخاصة.

5- موقف الفراء من السماع من خلال كتابه معاني القرآن.

"يعد السماع هو الأصل الأول من أصول النحو العربي، بل هو حجر الأساس في عملية الاستدلال إذ أن الأصول الأخرى لا بد لها من مستند من السماع"[48]ولمعرفة موقف الفراء من السماع واعتماده عليه في إثبات رأي أو معارضة آخر، لا بد من وقفة مع مصادر هذا الأصل ومدى اعتماده على كل مصدر وإفادته منه.

5/1- القران الكريم

القرآن الكريم هو أول المصادر للشواهد النحوية واللغوية في العلوم، حيث اجتمعت كلمتهم على أن كل قارئ يجوز الاحتجاج به في العربية سواء القراءة كانت متواترة أم شاذة[49].

وهذا يجرنا إلى أن نعرج على شروط القراءة الصحيحة وهي:

– صحة السند إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

– موافقة القراءة للرسم العثماني.

– موافقتها لوجه من وجوه اللغة العربية.

أما ما اشتملت على الشرطين الأول والثالث وخالفت الشرط الثاني فيعدها الفراء من القراءة الشاذة. و لا اختلاف بين النحويين في جواز الاحتجاج بالقراءة الشاذة [50].

اشتمل كتاب معاني القرآن للفراء على العديد من الشعر والنثر وهو بحق قد توسع كل التوسع في أصل السماع نظير أستاذه الكسائي في الرواية عن الأعراب المتحضرين منهم، وبعد تصفحنا لكتابه، لاحظنا أنه إنما كان يتبع الفصحاء منهم أمثال أبي ثروا ن الذي(عاش في النصف الاخر من القرن الثاني الهجري)[51]، وأبي الجرح (ت141)، ولعل كثرة ما رواه عن العرب وقبائلهم يحمل في طياته، أنه كانت له رحلة واسعة إلى الجزيرة، أنبأت في مؤلَفه معاني القرآن، أنه كثيراً ما يقول أنشدني فلان، أنشدني بعض قبيلة فلان أو عِلان أمثال بني أسد، بني كلاب،أو بعض بين ربيعة،أو بعض بني عامر، أو بعض بني حنيفة، وغيرهم من القبائل[52].

أما القراءات فهي محور كتابه، وقد بنا عليها توجيهاته لما لها من أساليب العرب ، متحدثاً عن لغاتهم التي تجري مع القياس، والتي تشذ عنه في اعتقاده، وعليه أنه كان يرد بعضها أحيانا كما يرد بعض القراءات، وليس معنى هذا أنه لم يتوسع في السماع من العرب بل العكس توسع فيه إلى حد بعيد، وخاصة إذا اتفق هذا مع بعض آي الذكر الحكيم وبعض قراءاته، وذهب بالسماع إلى حد أنه يقيس القراءات على بعض كلام العرب[53].

5/2– شواهد من الكتاب

– أنشدني أبو ثروان[54]:

قال الجَوارِي: ما ذَهَبْتَ مَذْهَبا! * وعِبْتَني، ولم أَكُنْ مُعَيَّبا

هلَ أنتَ إلا ذاهبٌ لِـتَـلْعَبـا أَرَيْتَ إنْ أُعْطِيتَ نَهْداً كَعْثَبَا،

أَذاكَ، أَمْ نُعْطِيكَ هَيْداً هَيْدَبا؟ أَبْرَدَ فِي الظلْماءِ مِن مَس الصِبا

فَقُلْتُ: لاَ، بَلْ ذَاكَما يابِيبَا أجدرُ ألاَ تفـضَحا وتَحْرَبـــا

احتج الفراء بهذه الشواهد في قضية السماع

– يقول الفراء :وقوله "لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها. "سورة البقرة الاية 286.

الوُسع اسم في مثل معنى الوُجد والجُهد. ومن قال في مثل الوُجد: الوُجد، وفي مثل الجُهد: الجُهد قال في مثله من الكلام:﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.[55]

– وقوله: ﴿ كيف نَنشُرها.﴾[56] سورة البقرة 259.

يقول الفراء: نَنْشُزُها قرأها زيد بن ثابت كذلك، والإنشاز نقلُها إلى موضِعها.

وقرأها ابن عباس «ننشرها». إنشارها: إحياؤها. واحتجّ بقوله: «ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ» وقرأها الحسن – فيما بلغنا – (ننشرها) ذهب إلى النشر والطي. والوجه أن تقول: أنشر اللّه الموتى فنَشروا إذا حَيُوا، كما قال الأعشى: يا عجبا للميت الناشر

و سمعت بعض بني الحارث يقول: كان به جَرَبُ فنَشَرَ، أي عاد وحيى.

– وقوله" 235:«أَوْ أَكْنَنْتُمْ"» للعرب في أكننتُ الشيء إذا سترتُه لغتان: كننته وأكننته، قال: وأنشدوني قول الشاعر:

ثلاثٌ مِنْ ثلاثِ قُدامياتٍ، من اللاتي تَكُنُّ من الصَّقيعِ.

وبعضهم يرويه تكن من أكننت"[57].

– وقوله [11]: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسانُ﴾ وما أشبهه، وقد تُسقط العرب الواو وهى واو جماع، اكتفى بالضمّة قبلها، فقالوا في ضربوا: قد ضرب، وفى قالوا: قد قالُ ذلك، وهى في هوازن وعليا قيس أنشدني بعضهم:

إذا ما شاء ضرّوا من أرادوا ولا يألو لهم أحد ضرارا"[58].

– وقوله 18/17 "سندع الزبانية" فهم أقوى وهم يعملون بالأيدي والأرجل، والناقة قد تزين الحالب وتركضه برجلها، وقال الكسائي: باخرة واحد الزبانية زبني، وكان قبل ذلك يقول: لم اسمع لها بواحد، ولست ادري أقياساً منه أو سماعاً"[59].

– وقوله: (148)﴿ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾

العرب تقول: هذا أمر ليس له وجهة، وليس له جهة، وليس له وَجْه وسمعتهم يقولون: وجِّه الحجر، جِهَةُ مالِه، ووِجْهةُ ماله، وَوَجْهُ ماله. ويقولون:

ضعه غير هذه الوضعة، والضِّعة، والضَّعَة. ومعناه: وجَّه الحجر فله جهة وهو مَثَلٌ، أصله في البناء يقولون: إذا رأيت الحجر في البناء لم يقع موقعه فأدره فإنك ستقع على جهته. ولو نصبوا على قوله: وجِّهه جِهَتَهُ لكان صواباً"[60].

-6- خـاتمة.

وفي ختام هذا العمل، ومن خلال عرضنا هذا الموسوم بالسماع عند الفراء.

اتضح لي من النتائج ما ياتي:

1) ان مفهوم السماع يختلف من المدرسة البصرية إلى الكوفية، وأن هناك من شدد فيه وهناك من توسع.
2) المنهج النحوي الذي سار عليه الفراء، هو ما انتهجته المدرسة الكوفية ولعل أهم ما يميزه، المبالغة في التقدير، ذلك أنهم يتوسعون في إجرائه.
3) إن الحركة اللغوية في الكوفة كانت بذرة في حقيقتها لنشأة علم الجرح والتعديل وكانت دعوة غير صالحة لتيسير النحو، وتحريره من قبضة القوانين الصارمة.
4) اهتمام أهل الكوفة من النحاة بالسماع كان أكثر مما عرف عند البصريين أمثالهم فقد اخذوا شواهد اللغة من كل مسموع وبنوا عليه وقاسوا وجعلوا

الشاذ جائزاً وقعدوا عليه، وقاسوا على البيت الواحد وتعدوا إلى القياس على ما خالف الأصول.

5) أما ما يخص توظيف الفراء لمصادر السماع في كتابه معاني القران ، لاحظنا ان الفراء اعتمد اعتمادا كلياً على مصادر السماع ووظفها توظيفاً واسعاً إلا ما كان من شأن الحديث النبوي، فكان لا يستشهد به إلا ما كان عارضاً او عابراً.

ويبقى موضوع البحث وإشكالاته متاحة أمام الباحثين للإثراء والنقد والنقض والله من وراء القصد و الهادي إلى سواء السبيل.

المصادر والمراجع:

[1] – ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحق: د إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، بغداد، ط2، 1970 م، ص 98.

[2] – إبراهيم السامرائي، المفيد في المدارس النحوية، دار المسيرة، عمان الأردن، ط1، 1427هـ/ 2007م ، ص96.

[3] – الأنباري، نزهة الألباء، مرجع سابق، ص 98.

[4] – المرجع نفسه ص 05.

[5]– معاني القران تح إبراهيم شمس الدين ص 09.

[6]– معاني القران نسخة غير محققة ص 05.

[7]– مأخذ الزجاج النحوية على الفراء في كتابه(معاني القران وإعرابه) رسالة ماجستير للطالب علي بن حسين بن يحيى الأمير .إشراف د/عبد الله بن ناصر القرني2008 جامعة ام القرى نقلا عن تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات) ص. 294

[8]– المرجع نفسه . ص24.

[9]– المدارس النحوية شوقي ضيف ط 7 دار المعارف ص 193 .

[10]– معاني القران تح القران إبراهيم شمس الدين ص 10.

[11]– المدارس النحوية شوقي ضيف ص215

[12]– معاني القرآن للفراء نسخة غير محققة ص 06.

[13]– مآخذ الزجاج النحوية على الفراء في كتابه (معاني القران وإعرابه) ص25

[14]– المرجع نفسه ص23.

[15] المدارس النحوية لشوقي ضيف ص 214

[16]– معاني القرآن للفراء ج .01.ص(187.186.162.140.139.127.121.91.67.34 .177.).

[17] – لسان العرب ابن منظور ج 7 سنة 2003 جزر (س) ص256

[18]– السماع في كتاب سيبويه نظرة إحصائية د/فهد سالم خليل الراشد ، مجلة الأدب واللغات– الكويت، العدد 16أكتوبر2010 ، ص 9 .10

[19] – لمع الدلالة في أصول النحو ابن الأنباري (ت 577ه) تح سعيد الأفغاني دار الفكر دط دت . ص81

[20] – المرجع نفسه، ص، 10.

[21]– الاقتراح السيوطي ص 39.

[22] – الإغراب في جدل الإعراب للأنباري ص 81.

[23]– في أصول النحو صالح بلعيد. دار هومة ، بوزريعة الجرائر ، د. ط سنة 2005. ص33

[24] – لمع الدلالة في أصول النحو ابن الأنباري ص81

[25]– الاقتراح في أصول النحو السيوطي تح محمود سليمان ياقوت دار المعرفة الجامعية. الازاريطة مصر، دط، 2006، ص 74

[26]– السماع عند الكوفيين خصائصه ومميزاته ، محمد خريبش مجلة دراسات لسانية ، البليدة، مج1 ع1 2012. 02 ص 31.30.

[27] – السماع بين البصريين والكوفيين، رسالة ماجستير، محمد كنتاوي، إشراف أ.د/ عبد الجليل مرتاض. جامعة تلمسان، ص 145 .

[28] – المرجع نفسه ص 149.

[29] – العمدة في صناعة الشعر ونقده ابن رشيق القيرواني ، أبو علي الحسين، ، تح وتعليق النبوي عبد الواحد شعلان مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط2000/1.ص 31.

[30]– السماع عند الكوفيين خصائصه ومميزاته ، محمد خريبش مجلة دراسات لسانية ، البليدة، مج1 ع1 2012. 02 ص 31.

[31] – السماع بين البصريين والكوفيين، محمد كنتاوي مرجع سابق، ص 149 نقلا عن صالح بلعيد، في قضايا فقه اللغة العربية، ص 181.

[32]– المرجع نفسه، ص 150.

[33]– السماع عند الكوفيين خصائصه ومميزاته ، محمد خريبش ص 32.

[34]– المرجع نفسه ص 36 نقلا عن بن الانباري الإنصاف ص48

[35]– السماع عند الكوفيين خصائصه ومميزاته ، محمد خريبش ص 36.

[36]– المرجع نفسه ص 34.33 نقلا عن بن رشيق القيرواني 179/1

[37]– السماع عند الكوفيين خصائصه ومميزاته ، محمد خريبش ص 34.

[38] – السماع بين البصريين والكوفيين، محمد كنتاوي مرجع سابق ص 146.

[39]– المرجع نفسه السابق ص 141.

[40] – من تاريخ النحو، سعيد الافغاني دار الفكر بيروت لم تذكر باقي البيانات 65.

[41]– السماع بين مدرسة البصرة والكوفة حتى القرن 4ه حاتم مصباح محمد فارس رسالة ماجستير اشراف سلام عبد الله عاشور جامعة الاقصى2015/2014 ص 41.

[42] الاقتراح في أصول النحو السيوطي جلال الدين (ت 911) تحقيق أ.د. حمدي عبد الفتاح خليل مكتبة الادب القاهرة ط4 2010. ص 236.

[43]– نزهة الألباء في طبقات الأدباء الأنباري .تح/إبراهيم السامرائي مكتبة المنار ، الأردن ط 1985/03م، ص153، والاقتراح ص237

[44]– السماع بين مدرسة البصرة والكوفة حاتم مصباح محمد فارس ص 43.

[45]– المرجع نفسه ص60

[46] – السماع بين البصريين والكوفيين، محمد كنتاوي ص 142.141

[47]– المرجع نفسه، ص 144/143.

[48]– مآخذ الزجاج النحوية على الفراء ص 230.

[49]– المرجع نفسه ص 230

[50]– مأخذ الزجاج النحوية على الفراء ص230

[51]– معاني القران للفراء ج1 القرآن 67/34

[52]– المدارس النحوية لشوقي ضيف ص 214

[53]– المرجع نفسه ص 215.

[54]– كتاب معاني القران ص16

[55] – المرجع نفسه ص125/126

[56]– المرجع نفسه ص125/126

[57] – المرجع نفسه ص110

[58] – القياس والسماع سورة البقرة أنموذجا مدونة السعيد رشدي الثقافية المغرب، "المنهل"، الأحد 28/12/2014

[59] – كتاب المعاني ص169

[60] – كتاب المعاني ص65.